اليرموك: كارثة أكبر من مخيم

مقدمة

اليرموك ليس كبقية مخيمات الشتات؛ هو عاصمة الشتات، إلاّ إنه يمتلك مميزات خاصة به، لا يمكن للمرء أن يجدها في باقي المخيمات، وإن اشترك في كثير من خصائصها.

لم يكن اليرموك يريد أن يكون جزءاً من الانقلاب الذي حوَّل الحراك السلمي حرباً أهلية بفعل عوامل داخلية وخارجية؛ كان يريد أن يبقى، كما اختار في اللحظات الأولى لتحويل الحراك السلمي إلى صدام عسكري، مركز إيواء وإغاثة، ومستشفى ميدانياً لكل مَن أصابته شظية قذيفة أو رصاصة بندقية، وبلا تمييز بين معارض وموالٍ.

ففي قلبه تجمّع فقراء سورية ومثقفوهم القادمون من الأطراف شمالاً ووجنوباً وشرقاً: مسيحيون وعلويون ودروز وإسماعيليون وأكراد وسنّة، وامتزجوا به. وعلى أطرافه تشكلت مدينة جديدة جل سكانها سوريون من مختلف الطوائف والمشارب، فبات فلسطينيو المخيم يُعدّون نحو سدس مجمل عدد سكان "مدينة اليرموك" (٢٥٠,٠٠٠ نسمة من أصل ١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة تقريباً).

بعد خسارة الثورة الفلسطينية قاعدتها الأردنية في مطلع سبعينيات القرن الماضي، كانت المخيمات الفلسطينية في سورية ولبنان، وخصوصاً مخيم اليرموك، مساحة لجأ إليها المسؤولون والمقاتلون الهاربون أو المبعدون من الأردن، ووجدوا فيها بيوتاً مفتوحة لهم. وكذلك بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان في سنة ١٩٨٢، فإن الآلاف من قيادات الفصائل وأعضائها ومقاتليها اختاروا اليرموك ملجأ لهم، وكان صدر البيت اليرموكي لهم.

لم يغير اليرموك انتماءه على الرغم من القمع والحصار السياسي والضغط الأمني. وظهر ذلك جلياً عندما امتلأت شوارع المخيم بعشرات آلاف الفلسطينيين الذين تجمّعوا كي يشيّعوا الشهيد خليل الوزير (أبو جهاد)، ويدفنوه في مدافن الشهداء في اليرموك في نيسان / أبريل ١٩٨٨. أدرك الجميع في حينه أن للمخيم شخصيته التي لا تغيرها وسائل القمع كافة.

السؤال الملح والجوهري هنا هو: لماذا استُهدف اليرموك إذاً بغارة بطائرة "ميغ" تابعة للنظام في ١٦ / ١٢ / ٢٠١٢، على الرغم من حياد المخيم؛ بل لماذا رُفض

حياد المخيم، وأصر النظام أولاً ثم المعارضة ثانياً، على جعله ميدان معركة لم يُردها، وعلى جعله ينزف ٩٠٪ من سكانه نزوحاً ولجوءاً، وعلى تدمير معظم منازله، وفرض حصار قاس عليه شهد العالم كله كيف مات خلاله كبار السن والأطفال جوعاً ومرضاً؟

والسؤال الذي يجره السؤال الأول: لماذا استُهدفت مخيمات سورية كلها، حتى تلك التي لم تخرج فيها تظاهرة واحدة ضد النظام، من مخيم الرمل في اللاذقية إلى مخيم العائدين في حمص وليس انتهاء بمخيم درعا، ومخيمات النيرب وخان الشيح والسبينة ودنون وجرمانا وقبر الست والحسينية وغيرها؛ ولماذا هُجِّر أهل المخيمات ولم يسمح لهم بالعودة حتى إلى المناطق التي استعاد النظام سيطرته الكاملة عليها؟

هل وراء أكمة زجّ المخيمات الفلسطينية في سورية في أتون الصراع هناك، ما وراءها؟ وهل يمكن أن يكون المقصود من تدمير المخيمات عامة، واليرموك خاصة، استهداف ملف اللاجئين ـ لب القضية الفلسطينية وأساسها ـ من خلال تدمير رمز لجوئهم، ولا سيما عاصمة اللجوء: مخيم اليرموك؟

ربما الوقت غير كافٍ للإجابة عن تلك الأسئلة، ولا سيما السؤال الأخير منها، لكن انتظاراً لما سيأتي، كان لا بد لـ"مجلة الدراسات الفلسطينية" من أن تفتح ملف اليرموك، باعتبار أن ما جرى ويجري، هو كارثة أكبر من جغرافيا المخيم، وتصل إلى عمق القضية الفلسطينية.

وفي محاولة لتسليط الضوء على أكبر قدر ممكن من مساحة تلك المأساة، طرحت "مجلة الدراسات الفلسطينية" عدة عناوين لمعالجتها، وساعد هيئة التحرير في اختيار بعضها الزميل يوسف فخر الدين الذي كتب: "اليرموك: صراع الأجيال وتدمير مجتمع العصاة"، في محاولة لتحليل أسباب مأساة اليرموك ونتائجها. وساهم فخر الدين أيضاً في تحرير مادة "السلاح والمسلحون الفلسطينيون في مخيم اليرموك" مع الزميل صبر درويش، والتي تُلقي الضوء على المجموعات والقوى المسلحة العاملة في مخيم اليرموك، كما ساهم في تحرير مادة "اللاجئون الفلسطينيون في المحنة السورية: محطات وإحصاءات" للزميلين يوسف زيدان وإبراهيم العلي، والتي تحلل إحصاءات قاما بجمعها من ميدان العمل مباشرة، وهذا جهد مميز يستحق التنويه.

فضلاً عن هذه المادة الدسمة، توجهت هيئة التحرير بطلب إلى مثقفين فلسطينيين عاشوا في اليرموك ذات مرة، وترك لديهم ذكرى جميلة قدموها في سياق الملف كشهادات عرفان لليرموك وأهله، فكتب كل من: غسان زقطان "بيت في اليرموك"؛ مهند عبد الحميد "وبقي اليرموك أميناً على قيم الحرية"؛ خليل شاهين "فرّامة لحم.. وشمعة!"؛ ميساء الخطيب "خاصرتان أوجعتا وطناً"؛ هاني المصري "مخيم اليرموك ضحية الانقسام". ■